كارل بوبر.. سيرة ذاتية وفكرية.. ضد الوضعية.. ضد الصهونية

أ. د. يمنى طريف الخولي(*)

طرحت الجمعية الفلسفية في هذه الندوة السنوية مدخل السيرة الذاتية.. ولي سيرة ذاتية، أو بالأصح شبه ذاتية منشورة بهذا العنوان في فاتحة كتابي «أمين الخولي والأبعاد الفلسفية للتجديد». وتعرض خبرة جيل في الانكسار والتحول بعودة الاستعمار الغربي المسلح مع غزو العراق وتدميرها بذريعة تحرير الكويت[1]، ولكن بدا لي أهم وأجدى أن أتوقف عند كارل بوبر Karl R. Popper (١٩٠٢-١٩٩٤)، فيلسوف المنهج العلمي الأول وواحد من أهم فلاسفة القرن العشرين، وعند سيرته الذاتية التي هي سيرة فكرية.[2] يشبه بوبر حسن حنفي في هذا، وفي ان مراحل حياته لا تعرض تغيرات حادة وانقلابات عاصفة على طريقة برتراند رسل مثلا حتى قال برود C. D. Broad إنه من عادة السير برتراند رسل أن يأتينا بمذهب جديد كل بضعة أعوام. كلا بوبر مثل حنفي: رؤية فلسفية محددة الأطر تراءت له في البدايات لتتكامل على

(*) قسم الفلسفة - كلية الآداب - جامعة القاهرة.

(١) د. يمنى طريف الخولي، أمين الخولي والأبعاد الفلسفية للتجديد، سلسلة اقرأ، العدد ٦٥٢، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٠. ص ص ٧-١٨.

(٢) أخرج بوبر كتابا بعنوان «تساؤل لا ينتهي» يحمل سيرته الذاتية/ الفكرية:
Karl R. Popper, Unended Quest: An Intellectual Autobiography, William Collins Sons & Co. LTD, Glasgow, 1976.
وهذا الكتاب الصغير في أصله الجزء الأول من المجلدين المخصصين لفلسفة لكارل بوبر في موسوعة أو مكتبه بول آرثر شيلب للفلاسفة الأحياء، جريا على عادة هذه الموسوعة من أن يُستهل الحديث بأن يعرض الفيلسوف المعني سيرته الذاتية وتطوره العقلي بقلمه، ثم يعقب هذا مجموعة أبحاث لفلاسفة ونقاد عدة. ويكون الجزء الأخير ردود الفيلسوف على نقاده. انظر:
Paul Arthur Schilpp (ed.), The Philosophy of Karl Popper, In: The Library of Living Philosophers, Part I: Vol. 14/I, Court Publishing Co., Illinois. 1974.

مدار السنين. يخبرنا بوبر في سيرته الذاتية إن الفكرة الأساسية لفلسفته أي القابلية التكذيب Falsifiability كمعيار أو خاصة منطقية مميزة للمعرفة العلمية، قد لاحت له وهو في السابعة عشر من عمره العام ١٩١٩ لتتطور وتتنامى خطوطها وتوجهاتها على مدار ثلاثة أرباع قرن بالتمام والكمال.

وقبل الإجابة عن السؤال لماذا سيرة كارل بوبر بالذات، نطرح السؤال: لماذا السيرة الذاتية أصلاً؟

السيرة الذاتية مدخل أو مقاربة فريدة وبالغة الأهمية، لأنها خبرة حية معاشة، شهادة حميمة ملتزمة وموثقة ومسؤولة. لكنها أيضا محاقة بمعرقلات خطيرة أن لم نحذرها فسوف تنال من جدوى ومصداقية الاستفادة من مضامينها. لعل أهم هذه المعرقلات حرص كاتبها عموما وفي حضارتنا المشرقية خصوصا على تقديم نفسه دائما في صورة مثالية منزهة عن الهوى والغرض بطريقة تجافي الممكنات الواقعية في بعض الأحيان. خذ مثلا واحدة من السير الذاتية أو شبه الذاتية التي تحقق الآن ذيوعا وانتشارا يندر أن يتكرر لوضع الكتاب المقروء في مصر، أي «سر المعبد»[1]، بها مسحة أدبية جميلة، وبها أيضا المثلب الذي أشرت إليه من حيث حرص الكاتب على أن يقدم نفسه وكأنه في كل مواقفه وحيوداته لا تحركه إلا أنبل الدوافع وأسمى الغايات، ولا يتبدى له إلا أصوب الصواب ولا يتخذ إلا القرار السديد..... لا يحدث أبدا أن نازعته النفس أو تعثرت القدم في الطريق. وهكذا تقدم السيرة الذاتية صورة مثالية تبعد بها إلى حد ما عن التمثيل الحقيقي لجدليات الواقع. وينبغي أن يؤخذ هذا في الاعتبار حين الانصات لشهادات السيرة الذاتية.

ومن ناحية أخرى، إذا صرفنا النظر عن الذات ويممناه شطر الموضوع في المثال الذي اتخذناه كحالة، أي «سر معبد»، وجدنا أهمية مضمونه في تنضيده لموضوع يفرض نفسه في هذه الآونة، أي المآخذ التي تؤخذ على جماعة الأخوان المسلمين. وانتهى الكتاب في هذا إلى تعيينات لها أهميتها من قبيل أن تضيع ذاتية الفرد في غمار رؤية الجماعة أو في رؤية قادتها الفاعلين، وأن

---

(١) ثروت الخرباوي، سر المعبد: الأسرار الخفية لجماعة الأخوان المسلمين، دار نهضة مصر، القاهرة، ٢٠١٢. الطبعة الحادية عشر ٢٠١٣. أخذنا هذا الكتاب مثالاً لأنه وقت إعداد هذه السطور في الشهرين الأخيرين من العام ألفين واثني عشر، كان بلغة السوق الشائعة الآن الكتاب الأكثر مبيعاً (Best seller) وبالتالي الأوسع انتشاراً.

يلتزم بموجهاتها مهما تبدت له تفصيليات مختلفة، ثم السلوك البرجماتي والعلاقات المتداخلة مع القوى المهمينة، والتراجع عما قد قيل إذا تبدى عدم مواءمته، وصولا إلى أخطر ما يؤخذ عليهم ويؤدي إلى إدانتهم وضرورة إقصائهم وهو اللجوء إلى العنف والإرهاب.... ويمكن الزعم بأن أهمية تعيين هذه المآخذ تكمن في أنها محكات إدانة يمكن أن تنطبق أيضا بدرجات متفاوتة على أحزاب أو جماعة سياسية أو فكرية عديدة، قد تبعد عن جماعة الأخوان بعد المشرق عن المغرب.

فهل يدهشنا أنها مآخذ يمكن أن تؤخذ على اثنتين من أخطر الجماعات وأشدها تأثيرا وتدويخا لنا ولعصرنا: الوضعية المنطقية والصهيونية؟! لا توجد بين هاتين الجماعتين علاقات منطقية أو فلسفية، مباشرة أو غير مباشرة، ويبدوان في اختلاف طبيعتهما وحيثياتهما وكأنهما يمثلان القوسين المتقابلين والطرفين الأقصيين. ولكن إذا كان الإرهاب الصهيوني تاريخ معروف وواقع شاهد، فلا نندهش من أن الوضعية المنطقية كانت بطريقتها وفي ميدانها هي الأخرى جماعة إرهابية بمعنى ما! فقد مارست في أجواء فلسفة العلم خصوصاً إبان الربع الثاني من القرن العشرين إرهابا فكريا بشعا قادرا على إقصاء الآخر. من لا يسلم بدعاويها هو المتخلف السادر في الشطحات الميتافيزيقية، أو الغارق في الأوهام المعيارية الذي يفضي بنا وبالفلسفة جمعاء إلى الخسران المبين. وفي الطريق المعرفي الظافر الذي التزمته وألزمت به نجد أن كل شيء واحد ووحيد: نسق العلم واحد ووحيد معياره واحد ووحيد، وأهدافه ومحكاته... كل شيء واحد من حيث أن أسسه واحدة هي الأسس التجريبية المنطقية... إنها واحدية المركزية الغربية.. المركزية التنويرية الحداثية.. المركزية الاستعمارية..الذكورية... التي تناقض تعددية ثقافية كائنة في الواقع وفي المثال.

***

وها هنا تكمن قيمة كارل بوبر. تعرض لنا سيرته الذاتية الفكرية في كتابه «تساؤل لا ينتهي» - وكتابات أخرى له - وشائج تربطه بالجماعتين معا: الصهيونية والوضعية المنطقية. وبحكم منزعه النقدي احتفظ بمسافة فاصلة عن كلتيهما، جعلت فسفته من معالم القرن العشرين ونقاط تحوله في فلسفة العلم على الأقل. فهو الذي مات أخواله في معسكرات أوشفيتز ودفعته أصوله اليهودية إلى الفرار بلا رجعة من موطنه فيينا إثر الغزو النازي لها، وهو مع كل ذلك الرافض بحسم للصهيونية.

أما من ناحية الجماعة الأخرى، الوضعية المنطقية، فإن بوبر فيلسوف العلم الأسسي(١) المنطقي التجريبي التنويري، الذي كان يدرس في جامعة فيينا إبان تشكل دائرة فيينا. وكان أعضاؤها أساتذته وزملاءه وأصدقاءه. ومع كل هذا التلاقي نجده الرافض بحسم وبضراوة للوضعية المنطقية، حتى عُد أخطر نقادهم، والمسؤول الأول عن انحسار نفوذها في مجال فلسفة العلم. كان نقد بوبر حاسما لأنه مكينا محيطا بالأصول وبالمرامي. ولم يرفض بوبر الوضعية فحسب، بل يرفض الاتجاه العام الذي انبثقت عنه الوضعية المنطقية، أي الاتجاة التحليلي، مؤكداً أن فلسفة العلم ليست مجرد تحليلات منطقية، بل هي فلسفة الفعالية الحية والهم المعرفي للإنسان.(٢)

وفي النظرة البوبرية تختلف صورة العلم عنها في النظرة الوضعية التحليلية. مع البوبرية يبدو العلم أكثر حيوية من أي منشط آخر، قضاياه قابلة دوماً للتكذيب والتعديل والتطوير والتقدم، يلعب الخيال الخلاق والعبقرية المبدعة دوراً أساسياً في رسم قصة العلم المثيرة التي علمت الإنسان المعنى الحقيقي للتقدم. وجعل بوبر فلسفة العلم هي فلسفة التقدم. بعد أن كانت الإشكالية المحورية لفلسفة العلم هي تبرير المعرفة العلمية وتحديد عوامل مصداقيتها ورسوخها، بات محورها هو تقدم المعرفة العلمية المتوالي دائما، والمفطور في صلبها كما توضح القابلية للاختبار التجريبي والتكذيب التي تجعل العلم قابلا دائما للتكذيب، لتعيين مواطن خطأ يمكن تصويبها تحقيقا لتقدم ما. إن التقدم كإمكانية مفطورة ومستمرة يعني الضد المنطقي للطرق الدائرية والتقهقرية والنهايات المغلقة، يعني المستقبل المفتوح والفلسفة المفتوحة والتاريخ المفتوح والمجتمع المفتوح.

❋❋❋

(١) المقصود بالأسسية Foundationalism الاتجاة العام الذي ساد الفلسفة الغربية الحديثة ولم يتزعزع إلا مع تطور فلسفات ما بعد الحداثة التي لا يرحب بها بوبر. وهي، أي الأسسية، تعني أن مهمة الفلسفة هي البحث عن أسس بمنأى عن الشك تظل ثابتة ومتفردة لتبرير الأطروحة، وتجعل المعرفة بدورها ترتكز على مجموعة من الحقائق المحددة (انظر المعجم الفلسفي المعاصر الملحق بكتاب: وليم جيمس إيرل، مدخل إلى الفلسفة، ترجمة د.عادل مصطفى، مراجعة د. يمنى طريف الخولي، ط٢، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١١. ص ٣٥٩) وكانت هذه الحقائق مع بوبر منطقية يحملها القابلية للاختبار التجريبي والتكذيب.

(٢) في الكتاب الضخم : د. يمنى طريف الخولي، فلسفة كارل بوبر: منهج العلم.. منطق العلم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩. ط٢ ٢٠٠٣. تكرس الباب الثاني بأسره (ص ص ٢٢١-٣٣١) لنقد بوبر الوضعية المنطقية ولمعايرهم لتمييز المعرفة العلمية.

وهاهنا مربط الفرس في متابعة السيرة الذاتية الفكرية لكارل بوبر حيث نتلمس عمق رفض الصهيونية، الرفض الجذري المُمنهج من فيلسوف المنهج العلمي الأول الذي قيل عنه إنه المفرد العلم الذي يشار إليه بالبنان حين طرح السؤال عن المنهج العلمي. مربط الفرس في رفض الصهيونية الكامن في الزوايا كافة من فلسفة بوبر الذي ولد في فيينا في الثامن والعشرين من يوليو العام١٩٠٢ لأبوين يهوديين أعتنقا المسيحية البروتستانتية فور زواجهما، فقط ليخرجا من وضع الأقلية ويندمجا في المجتمع النمساوي، في تطبيق فعلي للحل التنويري للمسألة اليهودية المناقض للحل الصهيوني بإنشاء دولة إسرائيل. على أية حال يؤكد بوبر تأكيدا في سيرته الذاتية، إن المسألة اليهودية تختلق مشكلة زائفة لا وجود لها في الواقع، حيث يمكن أن يعيش اليهود كأية جماعة أخرى في ظل المجتمع المفتوح.

دائماً أروع ما لدى بوبر هو قدرته على تعيين وتنضيد إيجابيات المنهج العلمي التقدمية وطرحها كفعالية مفطورة في صلب الحضارة الإنسانية، بل وفي صلب الحياة على سطح الأرض، ومن سيرته ومساره نتعلم كيف تأتي هذه الفعاليات عاصفة بأصول الصهيونية.

إن إيجابيات المنهج العلمي، منهج المحاولة والخطأ، منهج طرح الفروض الجريئة وتعريضها لأعنف نقد ممكن، قد ارتدت مع بوبر في صورة المجتمع المفتوح للرأي والرأي الآخر، للانتقال من المشكلات إلى محاولات حلولها ليفوز الحل الأقدر والرأي الأرجح، في إطار ديموقراطي. لا أحد معصوم من الخطأ، مما يعني أن أحداً لا يمكنه الزعم بامتلاك الحقيقة؛ ليصب المجتمع داخل إطارها ويقود الآخرين كالقطيع. لابد من إفساح كل مجال للرأي والرأي الآخر، ليتغلب الرأي الأقدر على حل المشكلة. وهذا يستلزم الديموقراطية والتعددية والإصلاح عن طريق الهندسة الجزئية والمناقشات النقدية والعقلانية والتسامح. باختصار المجتمع المفتوح.. الذي هو تمثيل العيني لتطبيق منهج العلم العقلاني النقدي على مشكلات السياسة والاجتماع.. حيث ممارسة العقلانية النقدية في الفلسفة السياسية كي تكفل للمجتمع طريقاً للتقدم مثلما تكفل للعلم تقدماً مطرداً. إنه دفاع بوبر الدائم «عن العلم والعقلانية»[1].

---

(١) فهل مصادفة أن هذا هو العنوان الفرعي لآخر كتاب صدر لبوبر، والذي خرج من المطابع بعد رحيله بأيام، والذي سيعود المتن بعد سطور إلى عنوانه الرئيسي. انظر:

كارل بوبر، أسطورة الإطار: في دفاع عن العلم والعقلانية، تحرير مارك أ. نوترنو، ترجمة د. يمنى طريف الخولي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٩٢، مايو ٢٠٠٣.

وفي تقديمنا لهذه الترجمة عالجنا جانبا من القضايا المطروحة في هذه الورقة المقدمة لندوة السيرة الذاتية.

ولم يُعنَ بوبر بالدفاع عن أسانيد المجتمع المفتوح قدر عنايته بتقويض حجج خصومه أو أعدائه دعاة المجتمع المغلق.. دعاة صب المجتمع داخل الإطار الشمولي والنسق الموحد الذي يؤدي إلى الديكتاتورية والانفراد بالرأي والتعصب والتطرف، سواء أكان هذا النسق الشمولي الموحد هو الماركسية أو سواها.

والآن إذا كانت أصول المجتمع المفتوح ديمقراطية، فإن أصول المجتمع المغلق صهيونية.

بتفصيلات مسهبة أوضح بوبر أن دعاة المجتمع المغلق، عبر مسار الحضارة الطويل وصولاً إلى المراحل المعاصرة، يرتكزون على النزعة التاريخانية historicism أي الزعم بإيقاعات أو أنماط أو مراحل لا بد حتماً أن تحدث، الزعم بمسار محتوم للتاريخ، يمكن التنبؤ به، وبالتالي قولبة المجتمع والدولة والسياسة في إطاره، فيكون المجتمع المغلق.

شن بوبر حربه الضروس الشهيرة ضد التاريخانية مفنداً كل حججها سواء متشحة بسمة علمية أم لا علمية[١]، وضد أمضى صورها مع هيجل والماركسية[٢].. ضد أصول المجتمع المغلق،التاريخانية، منذ ما قبل ماركس وأستاذه هيجل، بل وما قبل أرسطو وأفلاطون، حيث يجاهر بوبر بأن أولى صور التاريخانية هي الزعم بحتمية إياب اليهود إلى أرض الميعاد، هي أصول الصهيونية.

هكذا يُحمّل بوبر الصهيونيةَ بجدارة مغبة إلقاء الأسس الغائرة للتاريخانية، وتغدو بدورها إطاراً لمجتمع مغلق. وفلسفة بوبر ضد أسطورة الإطار في كل صورها. وطبيعي أن يحمل آخر كتاب أصدره عنوان «أسطورة الإطار» حيث يحذرنا من مغبة الأطر المغلقة في كل صورها، حتى باراديم توماس كون اعتبره إطاراً وهاجمه. وبديهي أن النزعات العنصرية أشر الأطر المغلقة مادامت من أقصر الطرق لمجتمع مغلق رافض للآخر، فضلاً عن الرأي الآخر.

---

(١) هذا هو موضوع كتاب كارل بوبر «The Poverty of Historicism» الذي ترجم إلى العربية: عقم المذهب التاريخي، دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية، ترجمة د. عبد الحميد صبرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٥٩. وقد صدرت طبعات أخرى من هذه الترجمة، بعضها بأسماء مختلفة. نلاحظ أن «المذهب التاريخي» ترجمة غير دقيقة لمصطلح Historicism والأفضل ترجمته: التاريخانية.

(٢) نقد هيجل وماركس وخصوصا هيجل ينتشر في أعمال كثيرة لبوبر، وتكرس له الجزء الثاني من أشهر أعماله «المجتمع المفتوح وخصومه». أما الجزء الأول فقد عني بمتابعة نقد أصول المجتمع المغلق إلى ماقبل أفلاطون وأرسطو، في بواكير الحضارة الإغريقية.

لا غرو إذن أن يقول بوبر في سيرته الذاتية قولته الصريحة البليغة الرائعة: «كل الدعاوى العرقية والعنصرية شر مستطير، والصهيونية لا تُستثنى من هذا»[١]، شاهداً ومصدقاً على أن الصهيونية ليست إلا دعوى عنصرية وإن أنكرت الأمم المتحدة ذاتها هذا، خضوعاً لضغط القوى الإمبريالية المعروفة. واصل بوبر هذا الرفض للصهيونية، وكان يترك دائماً الانطباع بأننا استبدلنا المسألة الفلسطينية وشتات الفلسطينيين بالمسألة اليهودية وشتات اليهود، وأن العنف ضد الفلسطينيين لا يقل جنونا عن معسكرات الإبادة. باختصار إنشاء دولة إسرائيل عالج الخطأ بخطأ أكبر.

***

وليس بوبر فريداً في هذا. إنه عضو في كوكبة من النبلاء الذين أوتوا ذكاء العقل وذكاء القلب فكانوا صادقين مع النفس ومع الضمير ومع أبسط قيم التفلسف، إنهم فلاسفة القرن العشرين من اليهود الرافضين والمناهضين للصهيونية.

وبدلاً من الشكوى من سيطرة الإعلام الصهيوني، لابد أن نعني العناية اللائقة بعملة قابلة للتداول العالمي، شاهد من أهلهم تزكي السير الذاتية شهادته. إنها رؤى فلاسفة ومفكري القرن العشرين من اليهود المناهضين للصهيونية، أمثال النجم الساطع الآن الذي لا يخشى في قول الحق لومة لائم وهو نعوم تشومسكي عبقري النحو التوليدي. ومن قبله أرنست بلوخ في بحثه عن مبدأ الأمل مؤكداً أن الصهيونية لن تحل مشكلة اليهود ولا أية مشكلة وكل ما ستفعله هو بلقنة الشرق الأوسط، أي تحويله إلى منطقة يطحنها الصراع وتفتتها النزاعات، وجورج لوكاتش وآرثر كوستلر، وآينشتين نفسه وموقفه في أيامه الأخيرة الرافض لرئاسة إسرائيل أو مجرد الانتقال إليها..... وآخرين.

***

وفي معرض السير الذاتية يفيدنا في هذه القضية مقارنة سريعة بين سيرة بوبر وسيرة مواطنه ومعاصره آرثر كوستلر Arthur Koestler (١٩٠٥-١٩٨٣) وقد أخرجها مفصلة في ثلاثة أجزاء. الجزء الأول بعنوان «سهم في الزرقة» Arrow in the Blue يغطي الفترة منذ ميلاده حتى العام ١٩٣١، والثاني بعنوان الكتابة المتوارية The Invisible Writing يغطي من عام ١٩٣٢

---

(١) Karl R. Popper, Unended Quest, P. ١٠٥.

حتى العام ١٩٤٠، أما الجزء الثالث فقد كتبه بمشاركة زوجته الثالثة سينثيا بعنوان «غريب في الميدان» Strange in the Square، وقد صدر بعد رحيلهما.

لماذا تفيد مقارنة هاتين السيرتين دون سواهما؟ في الإجابة على هذا السؤال نجد أن بوبر وكوستلر كليهما نتاج ظروف متشابهة. وكان كوستلر - كناقد محترف - متابعاً جيداً لأعمال بوبر يعرف حق قدرها، ومن أعلاهم صوتاً في مهاجمة الصهيونية ودولة إسرائيل ومبررات وجودها الآثم، بينما نجد بوبر بحكم منزعه العلمي التجريبي يكثر في كتاباته الاجتماعية والسياسية من الاستشهاد بالوقائع والأمثلة الحية والحالات الدالة، ولكن لا يتطرق لدولة إسرائيل ذاتها أبداً، لا سلباً ولا إيجاباً، مما دعا لطرح السؤال: لماذا تمثل إسرائيل المسكوت عنه في الخطاب البوبري؟ ولعل المقارنة بينه وبين كوستلر، وهو المقابل له الأعلى صوتاً، تطرح إجابة على هذا السؤال.

ولد بوبر عام ١٩٠٢ في فيينا عاصمة النمسا لأبوين نمساويين، وولد كوستلر علم ١٩٠٥ لأب مجري وأم نمساوية في بودبست عاصمة المجر، وذلك في عصر الإمبراطورية النمساوية/ المجرية، وشهدا معاً أفولها وتفككها وهما في شرخ الشباب (وبوبر له دراسة بعنوان الإبستمولوجيا والتصنيع[1]، نلاحظ من مطلعها كيف تركت هذه الخبرة مرارة عميقة في نفسه انعكست في فلسفته). كلاهما درس في جامعة فيينا، ولكن لم يواصل كوستلر دراسته ليحصل على شهادة تخصصية، بينما واصل بوبر دراساته حتى حصل على درجة الدكتوراه من جامعة فيينا في الفلسفة العام ١٩٢٨ برسالة حول المنهج. كلاهما آمن بالشيوعية لفترة من الزمن ثم انقلب عليها، اعتنقها بوبر في مراهقته لمدة ثلاثة أشهر واعتنقها كوستلر في صدر رجولته لبضعة أعوام. كلاهما هاجر في أواسط العمر بسبب الغزو النازي والخوف من بطش النازية بذوي الأصول اليهودية، وكلاهما استقر في إنجلترا حتى وافته المنية.

على أن كوستلر، بعكس بوبر، استهوته الصهيونية وهو في أوج صباه وانضم لجماعة «الأخوة الصهيونية» في جامعة فيينا التي أعرض عنها بوبر. كان كوستلر لا يزال في التاسعة عشر من عمره حين عمل سكرتيراً لإمام الصهيونية المتطرف جابوتنسكي أستاذ مناحم بيجين الذي علمه أصول الإرهاب. ومن فرط إيمان كوستلر بالصهيونية سافر إلى فلسطين العام ١٩٢٦ ليشهد ويشارك عن كثب في تأسيس المشروع الصهيوني الأثيم. أقام كوستلر في مستوطنة يهودية بوادي الأردن، وشهد ما شهده عن كثب لمدة عام واحد؛ كان كافياً ليكفر بالصهيونية

---

(١) كارل بوبر، أسطورة الإطار، مرجع مذكور، ص ص ٢١٥-٢٣٧.

كفراً بائناً وفر منها قافلاً إلى أوروبا. الخبرة التي مر بها في فلسطين انعكست في روايته «لصوص الليل» التي أثارت حنق اليهود لصراحتها وفجاجة القسوة التي تعرضها.

انقلب كوستلر بحماس إلى الشيوعية التي بدت له طريق اليوتوبيا الموعودة. وفي العام ١٩٣٦ انخرط عضواً نشطاً في الحزب الشيوعي، ومرة أخرى كفر بالشيوعية كفراً بائناً في العام ١٩٣٨، بعد أن زار الاتحاد السوفيتي ولمس قهر الفردية وصخب الدعاية الجوفاء. وشارك زملاءه الآبقين من الشيوعية الماركسية في تأليف الكتاب الشهير «المعبود الذي هوى». وأيضاً انعكست خبرة كوستلر بزيف الشيوعية في رواياته «المصارعون» و«ظلام في الظهيرة» و«وصول ورحيل».

على أن أهم ما ينبغي أن يستوقفنا حقاً هو الكتاب الخطير الذي أخرجه كوستلر العام ١٩٧٦ بعنوان «القبيلة الثالثة عشر» وقد ترجم إلى العربية مرتين[(١)]. يدور الكتاب حول الخرز وهم نسل جماعات تركية وثنية كانت تعيش في غرب آسيا، أقاموا دولة الخرز التي ظهرت إبان القرن السابع الميلادي واستمرت حتى القرن العاشر، في منطقة واقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين. كانت دولة الخرز وثنية ثم اعتنقت اليهودية لأسباب سياسية. يثبت كوستلر أن يهود شرق أوروبا لا ينحدرون عن أصول سامية، بل اعتنقوا اليهودية فقط إبان العصور الوسطى. وبالطبع ثارت ثائرة اليهود عليه، فهل لهذا أم لإصابته بالسرطان مات منتحراً هو وزوجته (الثالثة) في مارس العام ١٩٨٣؟! (أحب بوبر زميلته في الجامعة زوجته الوحيدة، تزوجا العام ١٩٣٠ حتى توفيت العام ١٩٨٥، لم يرزقا بأطفال، وظل دائماً ينوه بفضلها وفضل حبهما العظيم).

بوبر بلا شك رافض للصهيونية، بيد أنه لم يهاجمها هجوماً موجهاً وتفصيلياً وجهاراً نهاراً على هذا النحو الذي يكاد يداني عطاء الشيخ المناضل روجيه جارودي. وهذا لأن بوبر لم يؤمن بالصهيونية لحظة واحدة ولا تفوه بكلمة واحدة دفاعاً عنها أو حتى في صالحها. لم يبدر عنه شيء كي يندفع فيما بعد لينقضه بحماس كما فعل كوستلر بشخصيته المندفعة المتقلبة تكفيراً عن خطيئة الصهيونية في زمان الصبا.

أما بوبر بشخصيته العقلانية التنويرية ذات التوجهات التي لا تتغير، فكفاه الرفض الهادئ العميق الراسخ للصهيونية يشع من جنبات سيرته الذاتية وفلسفته العقلانية، يشع بالثقة المعهودة منه في توجهاته الفكرية. فيلسوف المجتمع المفتوح يثبت لنا أن الصهيونية أصل

(١) الترجمة الأولى قام بها أحمد نجيب هاشم وصدرت عن الهيئة العامة للكتاب، والترجمة الثانية قام بها إبراهيم زكي خورشيد وصدرت عن دار المعارف في سلسلة إقرأ.

التاريخانية وإطار مغلق وعنصرية وعلى الإجمال شر مستطير، فماذا ننتظر منه سوى السكوت على ما هو أوضح من أن يقال أو يناقش، تماماً كما سكت عن النازية وهتلر في كتابه «المجتمع المفتوح وخصومه» لأن الكتاب يحارب النازية بما هو أوضح وأعمق من أن يقال.

ماذا يمكن أن يقال بعد أن أكد في سيرته الذاتية على أنه باستثناء الحقبة النازية، كان اليهود في أوربا لهم الوضع العادي للأقليات، ولا مشكلة حقيقية، بل حتى لا هوية كما ذكرنا حين طرح المسألة اليهودية. ينظر بوبر إلى العبرانية بأسرها على أنها مجرد مرحلة تاريخية سحيقة ومنقضية من الثقافة الغربية وليس لها وجود معاصر، ولم تكن إيجابية تماماً.

ونذكر في هذا الصدد عَلماً آخر يمكن أن ينضم إلى تلك الكوكبة النبيلة من اليهود رافضي الصهيونية، إنه مؤرخ الفنون البصرية الشهير إرنست جومبريش Ernest Gombrich (١٩٠٩-٢٠٠١)، النمساوي اليهودي الذي هاجر إلى إنجلترا مثل صديقه كارل بوبر. جومبريش صاحب الفضل في تطبيق الفلسفة البوبرية، أي منهجية المحاولة والخطأ، في مجال الفنون وتأريخها، وهو يرفض مع بوبر أي زعم بهوية ثقافية يهودية، أو تيار في الثقافة الغربية أو الفنون يمكن نعته بالسمة اليهودية. الزعم بهوية يهودية فنية أو فكرية في عرف بوبر ورفيقه جومبريش ليس فقط إطاراً مغلقاً بل إطاراً وهمياً مزعوماً. ولهذا السبب دخل جومبريش في مشادة إبان معرض للفنون أقامه المتحف اليهودي في فيينا في تسعينيات القرن العشرين. كما سبق أن دخل بوبر في آواسطه في مشادة مع بن جوريون، في حفل ضم جمعاً من الفلاسفة والمفكرين اليهود وذوي الأصول اليهودية، معرباً له عن أن تحرير الإنسان هو الهدف، وأية أهداف يهودية مرتبطة بقطعة أرض لا تثير إلا السخرية، وقيل إن بن جوريون صرخ في وجه بوبر: كفى. ليس فحسب بل وفي أكثر من موضع يستدعي الأمر أن يبدي بوبر ألمه على ما أصاب نفراً من آله أو أصدقائه اليهود في معسكرات النازية، ثم لا يلبث بوبر أن يردف هذا بإبداء الألم على ما يصيب اللاجئين الفلسطينيين - أو بتعبيره العرب - الفارين من إسرائيل. وفي محاضرة له بعنوان «التسامح والمسئولية الفكرية» يصف الجانبين وأقرانهما بأنهما ضحايا المتعصبين المجانين[1]، أي أن النازية وإسرائيل كلتيهما تعصب وجنون. هذا هو ما نقرأه بين سطور سيرة كارل بوبر الذاتية والفكرية التي أتت ضد الوضعية.. ضد الصهيونية.

---

(١) كارل بوبر، بحثا عن عالم أفضل، ترجمة د. أحمد مستجير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦. ص ٢٣٠.